لعبة أدبية منسوبة الى الجاحظ

بقلم شارل بلّا

لقد تفضل صديقي الدكتور محمد حميد الله فاهدى الي بعد عودتـه من الاستانة شريطاً مصغراً من مخطوطة محفوظة في مكتبة فاتح (رقم ٣٨٩٨) منسوبة الى الجاحظ كما يتبين من الصفحة الاولى حيث جاء:

« رسالتا ابي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ في ذم العلو[م ومدحها] » .

ففي مخطوطة بديعة الخط[1] والضبط ، عدد صفحاتها ٦٤ ، في كل صفحة خمسة اسطر فقط وفي كل سطر نحو اربع كلمات فحسب .

وقد ورد في أولها :

« بسم الله الرحمٰن الرحيم — قال ابو عبدالله الديبوزي : صحبتُ أبا العباس محمد بن يزيد المبرِّد سنتين ؛ فلما استاذنتُه في الرجوع الى وطني قـال : « يزعُ عليَّ فراقك ، وقد وجب عليَّ حقك ، [. . . . .][2] أتحفك بكتاب ألّفه أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ لم يُخرجه الى غيري » ؛ وهذا صدر الكتاب : سئل [. . . . . .][3] ، فقال : رياضة الصغير ، وسؤل الضرير ، لا يُدرَك به النقي ، ولا تُنال به الدنيا ؛ قال قال[. . . . . .][4] قال : فالفلسفة الخ » .

يسأله هكذا في الفلسفة والنجوم والطب وغير ذلك من العلوم ويذمها الآخر بكلام مسجّع يدلّ على انتحال الكلام المعزوّ الى الجاحظ وعدم صحته؛ ثم جاء في آخر القسم الاوّل : « فنظر في هذا الكتاب [بعض] مَن يُعادي

---

١) « كتبها العبد الفقير الى رحمة ربه الحسن بن علي بن يوسف بن أبي المعالي الكتبي سنة خمس واربعين وست مئة » .

٢) كلمة ممحوة معناها : ينبغي ان .

٣) عدة كلمات ممحوة ولا ريب انها : « الجاحظ في . . . » ، ولا يظهر موضوع السؤال ، فلعله النحو .

٤) لعل هنا نقصاً او تكرار العبارة : « فالفلسفة » .

حظ من الكتّاب[1] ، فقال : « رمى العلوم بالأقتاب وهو كلام زنديق » ؛ فرجع اليه السائل فحكى له قوله فقال[2] : « أعِدْ عليَّ سؤالك » — فقال : ما تقول في القرآن الخ »

وأما آخر النص فجاء فيه : « فنظر ذلك الطاعن في كلامه هذا[3] ، فقال : « لا يحلّ لي الطعن[4] في رجل يجري ضميره مثل هذا الكلام وضدّه » ، « ثمّ إنّه بعد ذلك كان يختلف إليه ويدرس عليه ».

يبدو جلياً ان هذا النص لا يت الى الجاحظ بسبب وأن أديباً من أدباء القرن الرابع افتعل مثل هذا الكلام المتضادّ على قياس ما ورد في عدة كتب منها كتاب « المحاسن والاضداد » المحمول ايضاً على الجاحظ ، ورغماً عن ذلك رأينا من الممتع والمفيد ان ننشره ولكننا آثرنا ان نضعه على جدولين متقابلين[5] ليظهر التضاد العجيب بين « مدح العلوم وذمها » .

شارل بلّا

---

١) خط : من يعادي الجاحظ من بعض الكتّاب .

٢) اي الجاحظ بزعمه .

٣) اي في مدح العلوم .

٤) خط : لمن يطعن .

٥) خصوصاً وان العلوم لم ترتب ترتيباً واحداً في كلا القسمين .

ذم

فالمغازي والاخبار ؟ ــ قال : علمٌ مصنوع وكلام موضوع ، يُستَمَل به العوامّ ويُرتَبط بـه السوقة ؛ معيشة خامل وتجـارة سائل .

فاللغة ؟ ــ قال : علمٌ مخترَع

مدح

١ ــ ما تقول في القرآن ؟ ــ قال : حجّةٌ على المُلحِد وتبيان للموحِّد ، قـائم بالحلال المنزَّل والحرام المفصَّل ، وفاصلٌ بين الحقّ والباطل وحاكم يرجع اليه العالم والجاهل وإمامٌ تُقام به الفروض والنوافل ، سراجٌ لا يخبو ضياؤه ومصباحٌ لا يخمد ذكاؤه ، وشهابٌ لا يُطفأ نوره وبحر لا يُدرك غَوْره ومعدن لا تنقطع كنوزُه ، ومعقِل يمنع من المَلَكة والبوار ومرشد يدلُّ على طريقـة الجنّة والنار ، وزاجر يصدُّ عن المحارم ومُجير يومَ التحاكُم .

٢ ــ فالحديث والأثر ؟ ــ قال : فيه أخبار الماضين وأنبـاء الغابرين وقِصَص الذاكرين وأدب الدنيا ومعالم الدين ومعرفة المفروض والنافلة والشريعة والسنّة والمصلحة والمفسدة والجنّة والنار ، إلى صاحبه تُشَدُّ الرِّحال وبه يسير ذكرُه في البلدان ويبقى على مرّ الزمان .

٣ ــ فالفقه ؟ ــ قال : فيه علم الحلال والحرام ومعرفة شرائع الإسلام وبه تُقام الحدود والأحكام ، وهو عِصمة في الدين وزينة في الدنيـا ، يخطُب لصاحبه فضلَ الكمال ويخلع عليه ثوبَ الجمال ، ويلبس ثوب العزّ ويبلغ المنزلة القصوى .

٤ ــ فالعربيّة ؟ ــ قال : تبسُط من

ذم

وقياس متّبع ، ثقيلٌ على الأسماع قليل الإمتاع ، علمٌ معدوم وصناعة معلّم .

فالغريب ؟ ــ قال : كلام وحشيّ ومذهب بدويّ ، تمُجّه الاسماع وصاحبه منسوب الى الصُداع ، مغموم ببغضاء السَفلة وتحامُل العامّة .

فالخَطَب ؟ ــ قال : شِقْشِقة[1] ولا يقوم عليه بُرهان ، علمٌ مكفوف وبضاعةٌ مضعوف .

---

١) كذا ولعله قد سقطت عدة كلمات .

مدح

العَيّ[1] لسانه وتُجري من الحصر جنانه ، ويتّسع المرء في كلامه وينبسط في مُحاورته ويسلَم من هجنة اللحن وأوَد اللفظ وتحريف القول ، وبه يخرج عن وقفة المتحيّر وانقباض المتحفّظ وإحجام المتهيّب ، وهي آلةٌ لجميع العلوم وأداة لإصلاح السقيم .

٥ ــ فغريب الكلام ؟ ــ قال : به يكون اللَسَن وفصاحة المنطق وتبيان الغامض وتخليص[2] الملتبس والتفنّح في الوصف والتبحّر[3] والتصرّف في الشرح والاتّساع في النظم والتأليف والزيادة في سعة الكلام وفسحة المجال ، وأداةٌ من أدوات الكمال وعتيدة من عتائد كِرام المقائد .

٦ ــ فالبلاغة ؟ قال : تشحذ الطبع وتفسح فضل المعرفة وتبعث على الفصاحة وتزيد في البيان وتبسُط اللسان بحسن العبارة عن العقل وتحُلّ عِقال الحصر وتُطلق وِثاق العيّ وتعبّر عن الحُجّة وتكشف قناعَ الشهوة وتهتك الحجاب دون الحجّة وتأتي من وراء البغية ، وبها يقع الشرح والإفصاح ويكون الذمّ والامتداح ، وتُبرئ المرء بتقويم

---

١) خط : الفي .
٢) خط : تلخيص .
٣) سقط من الاصل بعد هذه الكلمة : في كذا .

ذم

فالخطّ ؟ ــ قال : قليل الردّ يسير الرِّفد ، صناعةُ محرّر[1] وأداةُ مزوّق .

فالحساب ؟ ــ قال : مستعجمٌ عسير[2] الإدراك مُنعقدٌ شديد الاشتباك ، يُتعب التنقير ويستكدّ العقولَ بدوام التفكير .

---

١) كذا في الاصل ولا يقوم السجع على قدم . ولعل الصواب : «مخرق» .
٢) خط : عسر .

مدح

أوَد اللفظ عن زراية[1] النقص وهجنة العجز .

٧ ــ فالخطّ ؟ ــ قال : لسان اليد ولهجةُ الضمير ولفظ الهمّم ونعمَ الأداةُ ، والناطق عن الخواطر وسفير العقل ووحي الفكر وسلاحُ المعرفة ومحادثة الأخلاء على النأي وأنسُ الإخوان عند الفُرقة ومجاورتُهم على اختلاف الدار وبُعد الشُّقّة ، ومستودع الأسرار ومستنبط الأخبار وحافظ الآثار ورابط الدواوين . وحاذر أمور الدنيا والدين .

٨ ــ فالحساب ؟ ــ قال : علم طبعيّ لا اختلافَ فيه واضطراريٌّ لا تأويلَ له ، قائم بنفسه ثابتُ الدلائل مكتفٍ بذاته واضحُ البراهين محصّنٌ من خلاف المعارض وردّ المناقض[2] ، لا يحتمل معناه الوجوه المشتركة ولا ينازع لفظَه الحدودُ المتشابهة ، ولا تتعاوره التأويلات المختلفة ولا تتقسّمه المذاهبُ المتباينة ولا تتوزّعه[3] الأقاويل المتضادّة ، ولا يتبدّل بالتشاجر والمِراء ولا باختلاف الآن وتنازع الاهواء ، حاكم يقضي بقطع التجاذُب[4] والخلاف وقاضٍ يقضي

---

١) خط : رواية .
٢) خط : المناقض .
٣) خط : تورعه .
٤) خط : التجارب .

م

فالاخبار والنوادر ؟ ــ قال : كذبٌ موأّف وكلامٌ مُزخرف ، يُستَفزُّ به الغِرُّ ويُقتنص به الغمر ، مصائدُ المساكين والحدّاعين .

فالشعر ؟ ــ قال : سلاح بذيٌّ وآلة دنيّ ، فُضول الأعاريب مبنيٌّ على زُخرُف الأكاذيب .

فالعَروض ؟ ــ قال : علمٌ مولّد وأدب مستبرَد ، ومذهب مرفوض وكلامٌ مجهول .

فالطب ؟ ــ قال : رأيٌ مستعمَل وقياس متخَل ، موضوعٌ على التخمين والحدس وتعليل

مح

بالعدل والإنصاف وقيمٌ يحفظ[1] الكريم . ويستدرّ إمساكُ اللئيم .

٩ ــ فالاخبار والثُّقف ؟ ــ قال : هي ثِقاف العقل وجُمام[2] النفس ومُستراح القلب ورائد الفهم وقائد المروءة[3] ودليلٌ على الجرأة ، وإليها تُصغي الأسماع عند المحادثة وبها تخلب القلوب عند المجالسة ويكون الإمتاعُ والمحادثة ، وهي حدائق الأوِدّاء عند المذاكرة ورياض الأخلّاء عند المجاورة وتزيد في الأُنس والسرور وتدلُّ على محاسن الأمور ، وتُدنيك من مجالس العظماء وتُدخلك في صحابة الرؤساء .

١٠ ــ فالعروض ؟ ــ قال : أداةُ الشعر وعيارُه ، به يُعرف الصحيح من السقيم والمعتلُّ من السليم ، وعليه مَدارُ القريض والشعر وبه يسلَم من الأوَد والكسر .

١١ ــ فالطبّ ؟ ــ قال : سائس الأبدان والقيّم على الإنسان ، وبه يكون حفظُ الصحّة وتدبير الأمراض ومعرفة

١) خط : بحفظ .
٢) خط : وحمام .
٣) خط : المروّة .

ذم

النفس ، لا يوصَل منه الى الحقيقة ولا يُعمل فيه بالوثيقة .

فالنجوم ؟ ــ قال : حَدْس وترجيم صوابُه عسير وغلطه كثير ، حرفةُ محدودٍ وصناعةُ محروم .

مدح

الفصول والأزمان وتغيُّر الأهوية واختلاف البلدان ، وبه يقام الجسمُ على الاعتدال والقصد ، وبه تكون الدلالة على المنافع والمضارّ ، علمٌ يتّفق[1] فيه أصحاب النِّحل ويجتمع عليه أهل المِلَل[2] ، ويعمل به الخاصُّ والعامّ ويفتقر إليه الصغير والكبير .

١٢ ــ فالنجوم ؟ ــ قال : حَدْس يُعلم بها عددُ السنين وحساب الشهور ومواقيتُ الأزمنة والفصول ومساقط الأنواء ومطالع النجوم ومعرفة الأهلّة ومقاديرُ الأظلّة وسُموت البلدان واقدام الزوال . . .

[١٣ ــ فالكلام ؟] ؟ ــ . . . . .[3] وإدراك الدقيق والجليل[4] وآلةٌ لإدراك[5] الغامض والمشتبه وأداةٌ لما بين الشُّبهة والحُجّة والجماعة والفرقة والحظر والإباحة والردّ والمعارضة والإجماع والمناقضة[6] ، وحاجزٌ بين الحسنة والسيّئة ، كلُّ علم

---

١) خط : يتفق .
٢) خط : المَلَك .
٣) يبدو انه قد سقط من هنا عدة اسطر اذ ان علم النجوم ليس آلة لادراك الغامض الخ فلعل العلم المذكور في هذه السطور هو الكلام أو المنطق .
٤) خط : الخليل .
٥) خط : الادراك .
٦) خط : والمناقصة .

عليه عيالٌ وهو له آلةٌ ومثال، وبه يُعرف الشكل والضدّ ويتبان به العدل والفضل ويُتغلغل إلى الامور الخفيّة ويُتوصّل إلى المعاني اللطيفة ويُتوغّل إلى معاني الأسما. وحقائق الأشيا، وبه يُحترس من شُبهات المقالات وفساد التأويلات، وبه يُدفع تحريف أهل الأديان ويُنزّه عن حيرة التقليد.

فالفلسفة ؟ — قال : كلام مترجَم بعيدٌ مداه قليلٌ جدواه، مَخوفٌ على صاحبه من سطوة الملوك وعداوة العوامّ.

١٤ — فالفلسفة ؟ — قال : أداةُ الضمير وآلة الخاطر وسوانح الفكر ونتائج العقل وأدِلّة المعرفة للأجناس والعناصر، وعلمُ الأعراض والجواهر وعِلَل الأشخاص والصُّور واختلاف الأخلاق والطبائع وافتراق السجايا والغرائز، ومعرفةُ الأشكال والأضداد وأسباب الكون والفساد، وبه تُعرف حركات الاشخاص العُلويّة وطبائع الجواهر الأرضيّة، علم يشحذ الفكر ويلقّح الضمير ويُروّح ما في الصدور، وتُعبّر به الألسُنُ عن العقول، وهو لمن مضى آثار ولمن بقي استبصار.

فالكيميا. ؟ — قال : تُهَمٌ حاضرة وأغراض متراخية شَرَكُ الغُرور وحبائل الطَّمَع وناموس الخُدَع، هِمّةُ مغرور وصناعةُ مخذول.

١٥ — فالكيميا. ؟ — قال : لطائفُ الفِطَن ودقائق الفِكَر وغوامضُ الهِمَم وتغلغُلٌ إلى حقائق الجواهر وخصائص العناصر وطبائع الأشيا. وما يُنتِج لها الجمعُ والتركيبُ ويُحدِث لها النظمُ والتأليف، وبه يُوصَل إلى حقيقات الإكسير وقلب

ذم

فالنسب ؟ – قال : علمٌ ثقلُه عليك ونفعُه لغيرك ، قليلُ الفوائد نفعُه للأباعد ، عليك كلُّه ولغيرك فضلُه .

فالتعبير وعلم الرويا ؟ – قال : ظنونٌ وحُسبان لا يَثبُت له دليلٌ [. . . . .][1] الغنى والثروة وحاجزة دون العزّ والرِّفعة .

فالشجاعة والإقدام ؟ – قال : قائدُ الموت ورائدُ الحِمام ، يُعجل المهج قبل آجالها ويختطف النفوس دون ميقاتها .

فالصنائع ؟ – قال : قائمةٌ بالقوت والبُلغة مانعةٌ من أعرابيّ ، وهَدَرُ بدويّ – وصناعةٌ متقعّر ومذهب متشدّق .

فالتجارة ؟ – قال : في الحَضَر مُجاملة وفي القُربة مُخاطرة ، للنفس مَتعبة وللقلب مَشغلة ، أمانيها طويلة ومحصولاتها قليلة .

مدح

البيان وإبدال الحِرّ والكيان ، وهو ثمرةُ نهاية المعرفة وفائدةُ أقصى الحكمة .

١٦ – فالنسب ؟ – قال : فيه معرفةُ الأصل والسَّلَف وحفظُ المفاخر والشرف وعلمُ الأعقاب والخَلَف وتحصين[1] المواليد والنسب من دعوة المدّعين ومشاركة المسلمين .

١٧ – فالتفسير والتعبير ؟ – قال : علمٌ نبويّ وسفيرٌ إلاهيّ وروحٌ خفيّ يُحيل[2] الأرواحَ في أرجاء القلوب ويُزدِي الأشياء إلى ضمائر القلوب ويُسيّر الأنفس في البراري والبحار ويناجيها بخفي الأسرار ويشاهد ما غاب عن الأبصار ، ويُريه الحيَّ والمقبور ويكشف عن عجائب الدهور ، وفيه من الله بُشرى وتحذير وتخويف[3] ، يُخبر عن الأشياء الغائبة والحاضرة ويُبيّن عن أمور الدنيا والآخرة .

١٨ – فالشجاعة والفروسية ؟ – قال : زينةٌ في الرخاء وعُدّةٌ في الشدّة وأُهبةٌ في النجاة وزيادةٌ في القوّة ، وخصلةٌ حسنة وذكرٌ نبيه .

١٩ – فالصنائع والمتاجر ؟ – قال : بها قِوام المعيشة ودفعُ الخصاصة ، وهي أمانٌ من الخَلّة وحرزٌ من الحاجة .

---

١) خط : وتحصير .
٢) مشوش في الاصل .
٣) خط : وتعونف .
٤) يظهر ان كلمة سنأتي « لا يدرك به » قد سقطت .